في غمار الأسبوع الثالث من الانتفاضة

هل آن الأوان لتقف القمة الرباعية والقمة العربية أمام الحقائق الجديدة؟!

أحدثت الانتفاضة الفلسطينية الجارية، التي هي انتفاضة الأقصى الثانية، صدمة كهربائية قوية في أعصاب الأمة العربية وعمقها الإسلامي، نجمت عنها صحوة طال انتظارها. إنها صحوة الشارع والجماهير المغيبة الغائبة منذ أربعين سنة تقريبا، حتى ذهبت الظنون ـ ظنون الخصوم الدوليين المسيطرين ـ إلى أنها تعاني غيبوبة الموت، إثر قمع الأجهزة البوليسية وإثر الحروب الأهلية التي استنزفت دماءها وسممت معنوياتها وتركتها بلا حراك.

غير أن انتظام مثل هذه الصحوة في قنوات تنقل طاقة الجموع من زخمها وشكلها التلقائي العاطفي إلى ميادين الفعل والمثابرة وتحقيق التغيير المجدي، هو الشيء الذي يعول عليه بعد أن تشرب كل أرض ماءها وتعود وتيرة الحياة اليومية. وهذا الشيء هو الذي يعمل له خصوم الأمة ألف حساب، فما إن يستيقظوا بدورهم من وقع المفاجأة حتى يسارعوا إلى محاولة تفريغ محتوى الشحنة بعدة أساليب أو بواسطة عملاء مريبين لا يعرف أحد كيف يظهرون فيركبون الموجة ثم يحرفونها عن المسار ويحولونها إلى الخلاء، بل ربما حولوها عكس ما أراده لها الأبرياء أصحاب التضحيات.

دون مكابرة

هذه ملاحظة أولية حول الصحوة والحضور الجماهيري الغاضب في العالم العربي من عدوان الاحتلال على المسجد الأقصى ومن وحشية استخدام قوات الاحتلال ترسانتها العسكرية ضد العرب أهل فلسطين. إن صحوة الأمة صحوة مباركة، تجيء شفاء لصدور قوم مؤمنين لم يفقدوا ثقتهم بأمتهم يوما، ولا نفضوا أيديهم من انتمائهم. لقد أعاد الدم الفلسطيني الزكي إلى الأمة إحساسها الجمعي بوحدة قضيتها ووحدة مصيرها، مثلما جسد المثال الذي تعرفه الأمة عن تاريخها، مثال الثورة على الظلم واجتراح الفعل النبيل المشرف مهما غلا الثمن. فهل يمكن للولايات المتحدة وإسرائيل معا، أن تقرأا الحوادث التي اندلعت في فلسطين والمنطقة قراءة حقيقية دون مكابرة، أم أنهما ستظلان أسيرتي النظرة الغبية التي يغشيها الطمع والاستهانة بالأمة العربية، وهي النظرة التي أدخلتها المحافل الصهيونية في أمريكا إلى وزارة الخارجية الأمريكية فأصبحت جزءا من العقيدة الأمريكية في السياسة الخارجية؟

نحن هنا لا نقصد استرجاع وقائع انحياز الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل وإنفاقها مال دافع الضرائب الأمريكي على هذا المشروع الاستيطاني الغربي، ووضعها ترسانة الأسلحة الأمريكية المتطورة تحت تصرف جنرالات الحرب الإسرائيليين، فنحن معتادون على ذلك كله، وليس فيه جديد منذ كان شعار حملات التبرع لإسرائيل في نيويورك (ادفع دولارا تقتل عربيا)! ولكننا نتحدث عن قيام إسرائيل بإدخال مجموعة من المفاهيم إلى عقل النخبة الأمريكية السياسية، لتجريدها من الاتزان والتفكير السليم وتقدير الموقف تقديرا صحيحا، لا بمقياس الحق والعدل والمنطق ـ فنحن نعرف أن السياسة تدور حول المصالح لا حول المثل والأخلاق ـ ولكن بمقياس المصالح الأمريكية نفسها.

إسرائيليون أكثر من الإسرائيليين

لقد أدخل الإسرائيليون وجماعاتهم في الولايات المتحدة في روع الأمريكيين أن الأمة العربية مفككة بحيث لا يمكن أن تتحرك ولا أن تكون لها إرادة موحدة. وأدخلوا في روعهم أيضا أن المصالح الأمريكية مضمونة بفضل عملاء مزروعين في مفاصل بعينها هنا وهناك، وأن خير سياسة في المنطقة هي سياسة ضرب القوى التي ترفع رأسها أولا بأول. بدءا من عبد الناصر والناصريين، مرورا بالإسلاميين وأية قوة فعالة تبشر بتشكيل وزن محلي يعتد به عالميا. وبلغ من استحكام هذه النظرة في العقل الأمريكي المركزي، أن جورج تينيت مدير المخابرات المركزية الأمريكية، أفصح في معرض استخدام الضغوط على الفلسطينيين أثناء مفاوضات كامب ديفيد، عن رؤية أمريكية تقول إن ((منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها غير ثابتة، بل قابلة للتغيير)).

لا يستغرب أحد إذا قلنا إن الإسرائيليين يوجهون إلى الأمريكيين دعاية توجيهية تصور العرب بصورة أسوأ بكثير من الصورة التي تتحدث بها الإذاعة الإسرائيلية عن العرب وباللغة العربية. فبينما يحرص الإسرائيليون على فبركة برامج تتحدث عن (التعاون بين العرب واليهود في التاريخ)، وبينما يتحدثون عن (شرق أوسط جديد تتعاون فيه شعوب المنطقة لما فيه خير المنطقة)، فإن الدعاية الصهيونية التي تروج في الولايات المتحدة عن طريق الصحافة والسينما والكتب ومحطات التلفزيون وغيرها تصور العرب بوصفهم مهربي مخدرات وتجار سلاح وهواة إرهاب ووحوش جنس وعنف.. الخ. ومطلوب بالتالي قتلهم أو على الأقل نبذهم. ففي حالة محاولة التقرب من العرب تكمن المصلحة الإسرائيلية في تمييع العداء العربي وفي اكتساب مواطيء أقدام لدى الدول العربية النفطية خاصة. وفي الحالة الثانية تكمن المصلحة الإسرائيلية في تأليب أمريكا واستخدام إمكانياتها الجبارة ضد المستقبل العربي دون نظر إلى الضرر الذي ستمنى به علاقات الولايات المتحدة مع العالم العربي. لقد قيل للأمريكيين إن العرب أعجز وأحط من أن يتجاسروا على المس بالمصالح الأمريكية. ومع أن للأمريكيين عيونا ينظرون بها وعقولا يعقلون بها فإنهم لم يدركوا أن بقاء المصالح الأمريكية في عافية طوال الوقت الماضي ليس دليلا على القبول أو الموافقة من جانب الشعوب التي حسبوها قطعانا من الماشية. إن الأمريكيين لم يفهموا نفسية المنطقة جيدا، ولم يعرفوا أن أعدادا وشرائح متزايدة من العرب تنضم كل سنة إلى سابقيهم الذين تجرعوا، ولو بمرارة متناهية، علاقة الاحتكار التي تنهب الشركات الأمريكية بموجبها احتياطيات النفط العربي، ولم يستطيعوا إطلاقا أن يتجرعوا إصرار الولايات المتحدة على تركيع العرب أمام الرب الإسرائيلي!!

سيناريو الأجهزة الإسرائيلية

لقد خيب العالم العربي ظنون الإسرائيليين والأمريكيين معا. فها هو الشارع العربي يتحرك حركة مفاجئة. وجدير بالذكر أن معلومات شاعت منذ بعض الوقت عن سيناريو أعده قادة أجهزة الأمن الإسرائيليون، بعد ما انتهى مؤتمر كامب ديفيد إلى ما انتهى إليه، وبحسب نص ذلك السيناريو يجري تهييج الفلسطينيين أولا، ثم يتعرضون لصدامات ومذابح مروعة، لكي يضطر القادة الفلسطينيون للتوقيع على الشروط التي لم يقبلوا التوقيع عليها سابقا . ولا يستبعد المرء أن مداهمة شارون للمسجد الأقصى المبارك - في خطوة معدة ومخططة مسبقا بالاتفاق مع باراك وتحت حراسة آلاف الجنود - كان بمثابة خطوة أولى في هذا السيناريو، ثم جاءت المذابح خطوة ثانية. لكن من المؤكد أن مخططي هذه المؤامرة الإجرامية لم يتوقعوا أبدا أن ينزل العالم العربي بثقله إلى الساحة.

لقد تجاوز الناس في العالم العربي زمن الردة الذي أشاع فيه بعض السياسيين وبعض الصحفيين ذوي الارتباطات المعروفة أن القضية الفلسطينية عبء على التنمية وعلى التطور الديمقراطي للأقطار العربية، وأن الفلسطيني تاجر لا صاحب قضية. وتجاوز الناس في العالم العربي زمن الردة الذي صور فيه البعض أن ما يفرق العرب هو أكثر مما يجمعهم وأن الشارع العربي لا يجد قضية تجتمع عليها الأقطار المختلفة بعدما سقطت تجارب الوحدة واحدة بعد الأخرى بالسكتة المفاجئة. لقد ذابت هذه الترهات كأن لم تكن، وبرزت الرابطة القومية والعقيدية بكامل تجليها فإذا هناك مظاهرات شبابية في كل عاصمة، وحملات تبرعات، وبيانات نقابات وأحزاب ونواد وجمعيات، واعتصامات فنانين وشعراء وكتاب، وعرائض ممهورة بالدم من جميع ألوان الطيف السياسي في البلاد العربية. وتحدث الكثيرون حديثا واعيا عن مقاطعة بضائع الخصوم وقطع العلاقات مع بعثاتهم الدبلوماسية. وسوف يصعب إعادة هذا المارد الذي انطلق من القمقم إلى حالة الجمود والموات التي أراد أصحاب المصالح أن تدوم في البلاد العربية إلى الأبد. ونحن لا نبالغ في مدى الإنجاز المتوقع قريبا نتيجة لهذه المبادرات. بيد أن قصير النظر وحده يجهل أن مخاضا قادما ولو بعد حين سيلد شيئا مختلفا عن الحاضر المرفوض، حاضر القمع والمهانة والعجز وتلطيخ الكبرياء والظلم المبين.

ضعف حساسية مزمن

أما مؤسسة القمة العربية فظلت ـ كالعهد بها ـ ضعيفة التحسس بما تفور به قلوب الشعوب، مقيدة بقيود خارجية تكبل أيديها وأقدامها، مرتهنة لحسابات واعتبارات لا تستطيع التخفف منها، ممثلة للعجز وقلة الحيلة والخوف من الأجنبي وإيثار الراحة والإخلاد إلى الدعة في القصور. وإلا لانعقد اجتماعها منذ اليوم التالي لمداهمة شارون المسجد الأقصى أو اليوم التالي للجمعة التي أطلق فيها الإسرائيليون النار على المصلين قبل أن ينتهوا من تسليمة الصلاة.

نحن لسنا مع المزايدين الذين يحبون أن يسمعوا من القمة الكلمات الكبيرة ولو كانت خارج الوسع والطاقة ولو لم يعقبها عمل، ولا مع الذين ينتظرون من القمة أعاجيب الأفعال. فالكلمات بلا رصيد كانت وما زالت داء من أدوائنا في تاريخنا الحديث. إنما ننتظر من القمة مبادرة تتكافأ مع إمكانياتها دون مناقصة ودون خوف يؤدي إلى شلل الإرادة والعجز عن مواجهة ما لابد من مواجهته.

على مفرق طرق

ونعود إلى السؤال الذي طرحناه في البداية : هل سيقرأ الأمريكيون والإسرائيليون ما حدث ويحدث في الأراضي المحتلة وفي العالم العربي قراءة صحيحة؟ هل سيكون لديهم أدنى استعداد لإعادة النظر في سياساتهم على ضوء هذه القراءة الجديدة؟

سيتوقف على الإجابة عن هذا السؤال اتجاه المنعطف ومفرق الطرق الذي تقف عليه المنطقة. وسيكون الإسرائيليون نادمين في جميع الأحوال.

لقد استنفذت الولايات المتحدة فرص ابتزاز تنازل من الفلسطينيين لصالح الإسرائيليين كما استنفذت صبر الشعوب العربية. ولن يكون في وسعها إرسال دينيس روس أو مادلين أولبرايت لتضعنا في فراشنا من جديد وتقص علينا حدوتة الدبانة. ولن يعود في وسع باراك أن يبعث

بجلعاد شير ليلا أو داني ياتوم ليجس نبضنا مرة بعد مرة حول صيغ جديدة تحمل المضمون المرفوض نفسه.

صار الأمر الآن يستدعي بطبيعته حتما حسم الرأي والتصرف، إما بشن حرب تصفية ضد الفلسطينيين، يموت فيها من يموت، وينزح من ينزح، وينصب فيها الإسرائيليون حاكما عميلا لهم يعالج شعبه المثخن بالجراح بالنار والبارود. وإما بالاعتراف للفلسطينيين بالاستقلال وإعادة الحد الأدنى من أراضيهم وحقوقهم لهم، ثم التعامل معهم بوصفهم أندادا لا رعايا تحت الاحتلال.

لماذا سيكون الأمريكيون والإسرائيليون نادمين في الحالين؟

لأن السيناريو الأول ستنجم عنه حرب عصابات لم يسبق لها مثيل، ينضم إلى موجة اللاجئين الفلسطينيين الجدد فيها عدد لا يعلم به إلا الله من شبيبة البلاد العربية، وتستخدم فيها على نطاق واسع وسائل حربية إلكترونية وشعاعية وصاروخية وغيرها. وكلما استخدم الإسرائيليون طيرانهم ضد قواعد الفدائيين، انهالت التبرعات من كل مكان عليها. وسوف تتميز تجربة القتال المفترضة باستيعابها لدروس الفشل والنجاح السابقة، ويخوض غمارها جيل أكثر إحاطة بالعلوم من الجيل الذي سبقه. ومن الصعب التنبؤ بالمدى الزمني الذي يمكن أن يستغرقه قتال من هذا الطراز وكذا التنبؤ بالآثار السياسية التي ستترتب عليه إقليميا.

أما السيناريو الثاني، أي الاعتراف للفلسطينيين بالاستقلال، فسوف يندم الإسرائيليون لكونهم لم يوافقوا عليه منذ البداية ويتجنبوا الخسائر والدمار الذي لحق بهم بسبب عنادهم. إضافة إلى أن تكلفة إعادة قطعان المستوطنين والمتهوسين اليمينيين إلى حجمهم ستكون تكلفة مؤثرة في مجتمع كالمجتمع الإسرائيلي.

عناد بلا طائل

سيحاول الإسرائيليون أن يكسبوا الوقت كما جرت عادتهم، بحيث يتلافون جبرية الخيارات الحاسمة التي تكلفهم غاليا، وينفذون ما يريدون على مراحل، تاركين لعبة المفاوضات المعلقة في الهواء تمضي إلى ما لا نهاية. فهم يعرفون عن العرب فوراتهم واندفاعاتهم ومبادراتهم الحماسية التي لا يطول مداها، ولذلك دأب الإسرائيليون على جس النبض أولا، فإذا وجدوا مقاومة شديدة عمدوا إلى تأجيل الموضوع مؤقتا، إلى أن تبرد الهمم، ثم أعادوا الكرة لاحقا.

لا شك أنهم هم الذين أوعزوا - على نحو مباشر أو غير مباشر عن طريق الأمريكيين - بحضور الوسطاء الدوليين المختلفين إلى المنطقة، بمن فيهم الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة. وذلك بغرض إعادة الوضع النموذجي الذي يناسبهم إلى ما كان عليه، أي إلى حالة اللاحرب واللاسلم، واللااستقلال واللااحتلال، واللامفاوضات واللاقطيعة. وهم الذين ضغطوا من أجل عقد مؤتمر القمة الرباعي لقطع الطريق على مؤتمر القمة العربي أو لجعل هذا الأخير غير ذي موضوع أو غير ذي جدوى. ومع ذلك كانت الشروط التي اشترطوها لحضور القمة الرباعية من العجرفة والصلافة بحيث يخيل لمن لا يفهمهم أنهم مرغمون على الذهاب وأنهم في غنى عن هذا الهم كله.

يسايرهم الأمريكيون في هذه المناورات، ويقومون بدورهم في هذه التمثيليات، علما بأنهم بدأوا يستشعرون خطورة الزلزال الذي يمكن أن يطيح بمصالح كبرى لهم، على الرغم من وجود أساطيلهم في مياه الخليج وقواعدهم البرية فوق أراضيه.

وجريا على الأسلوب الأمريكي ـ الإسرائيلي بإلقاء التبعة تارة على عاتق الطرف المقابل، وتارة على وجود ثغرات في تدابير الأمن، سارع الأمريكيون إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الشبح المسمى أسامة بن لادن، وباشروا طبعا بدراسة التدابير الأمنية الخاصة بقطع الأسطول الأمريكي في الخليج لتطويرها وتحسينها وتعقيدها. ويبدو حتى الآن أنهم لن يفكروا أبدا بأن سياساتهم هي السبب الأول والأهم في حالة القلق والسخط والثورة التي تعيشها المنطقة، وأنه يكفي أن يتصفح الإنسان وجوه المتظاهرين في عواصم المنطقة لكي يعرف ما ينطوي عليه المستقبل من احتمالات.

في نصف المسافة

والمطلوب من القمة العربية في حال انعقادها أن تفكر جيدا في تغيير مناهج الحكم بحيث يلتقي الراعي مع الرعية في منتصف المسافة ويقر الراعي بأن الاستناد إلى جماهير شعبه أكثر ضمانا من الاستناد إلى إرادة الأجنبي . ولن يتحقق هذا التغيير إلا بالإقلاع عن عسف البوليس، وبإبداء قدر من الإرادة العربية المشتركة المؤهلة لقول (لا) في وجه الأمريكيين.

إن عددا لا يستهان به من الناس أصبح يتحدث عن مسؤولية النظام العربي الراهن في حماية إسرائيل. ونحن لا نريد أن ننسى أن الحفاظ على القدر الممكن من التماسك الداخلي والإقليمي أكبر ضمان لنجاح المواجهة السياسية وصراع الإرادات مع الأجنبي والمحتل. وما زلنا نأمل في العقل الذي يستوعب الانفعال، وفي الأمل الذي يغلب اليأس.